المحاضرة الأولى : التأصيل الابستيمولوجي للسيميولوجيا

لقد بلغ المنهج السيميائي درجة من النضج جعلت منه أحد أهم المناهج النقدية المعاصرة التي وظفت لمقاربة جميع الخطابات النصية، ورصد كل الأنشطة البشرية المنطوية على معنى بالتفكيك والتركيب، والتحليل والتأويل، بغية الكشف عن آليات إنتاج هذا المعنى ، وكيفيات إفراز الدلالة.

من ثمة، فالمنهج السيميولوجي يهدف إلى استكشاف البنيات الدلالية التي تتضمنها الخطابات والأنشطة البشرية بنية ودلالة ومقصدية، والبحث عن الأنظمة التواصلية تقعيداً وتجريداً ووظيفة.

لكن قبل ذلك رافق التفكير السيميولوجي كل بحث عن المعرفة وحب للإدراك والاطلاع، بل كان وراء كل سؤال طرحه الإنسان لحظة دهشته الأولى برؤية الأشياء بمختلف مستوياتها في عالمه الخاص.

من المعروف أن السيميولوجيا هي ذلك العلم الذي يبحث في نظام العلامات وكيفية إنتاجها للمعنى، وهنا نتوقف لطرح التساؤل التالي: هل السيميولوجيا منهج أم علم؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تمر عبر تناول مفهوم العلم، أو بعبارة أخرى عبر الكشف عن الطبيعة الابستيمية للسيميولوجيا.

إنه بالرغم من تبشير فرديناند دي سوسير بميلاد علم سيوكل له دراسة الأنظمة التواصلية المختلفة عن اللغة: " صار بإمكاننا، بالتالي، أن نرتئي علماً يعنى بدراسة حياة العلامات داخل المجتمع، وسيشكل هذا العلم جزءا من علم النفس العام. وسندعو هذا العلم سيميولوجيا.Sémiologie وسيتحتم على هذا العلم أن يعرفنا بما تتشكل منه العلامات، وبالقوانين التي تتحكم فيها .

وبما أنه لم يوجد بعد، فيستحيل التكهن بما سيكون عليه. ولهذا العلم الحق بالوجود في إطاره المحدد له مسبقا، على أن اللسانيات ليست إلا جزءا من هذا العلم، [1].

إلا أن البعض يرى غير هذا الرأي بحسب أن السيميولوجيا لا تزال في طور التبلور – في السبعينيات– باحثة عن هوية معرفية واضحة المعالم، وانها لم تكتسب بعد أركان العلم ، حيث يرى كل من ديكرو وتودوروف "كون هذه الأخيرة تظل مجموعة من الاقتراحات أكثر منها علما أو كيانا مؤسسا تأسيسا علميا" [2]

يتساءل في هذا الصدد أحمد يوسف "هل أصبح المشروع السيميائي كيانا علميا يتمتع باستقلال مصوراته ويتفرد بنسقه النظري، ويتمتع بالقدرة على تحويل أطر شبكته المفهومية إلى أدوات إجرائية مطواعة، ويتوافر على مساحة غير ضيقة من حرية الحركة يترواح فيها بين عوالم الأنساق المحايثة وعوامل الأنساق المفتوحة؟"[3]

لابد إذن من الوقوف عند مفهوم العلم وما العناصر التي تجعل من معرفة ما عملا يتمتع بكينونة واضحة ومستقلة.

العلم كما يعرفه الباحثون هو "معرفة منبثقة من التجربة ...إن المعرفة العلمية هي معرفة دلت على ذاتها، تستخلص النظرية العلمية بشكل دقيق من وقائع قدمتها المشاهدة والتجربة، لا مكان في العلم للآراء الشخصية، والميول والتخيل، فالعلم موضوعي"[4]

عبر هذا الأساس إن السيميولوجيا ارتبطت مباشرة بفكرة المعرفة، من خلال أولى تفاعلات الإنسان مع ما يحيط به، إن فكرة التأمل كانت دوما تقود إلى تشكيل معرفة بالأشياء المحيط بنا ممارسين في ذلك تفكيرا سيميائيا" فمنذ أن أحس الإنسان انفصاله على الطبيعة وعن الكائنات الأخرى، بدأ يبلور أدوات تواصلية جديدة تتجاوز الصراخ والهرولة"[5]، وهذا يدل على بحثه في العلامات التي سيوظفها خدمة للمعاني والأفكار التي تخطر بباله، إنها أولى بوادر المعرفة البشرية.

في الصدد نفسه يقر الأستاذ فيصل الأحمر بصعوبة العثور على ملامح واضحة للسيميولوجيا كعلم يقول" إن الباحث في تاريخ السيميائيات لن يعثر على ملامح واضحة لهذا العلم، بل سيعثر على شذرات متفرقة تدل على أن الإنسان قد تأمل في العلامة منذ بدأ التأمل والتفكير فيما حوله"[6].

مرد ذلك تقاطع هذا التفكير – إن جاز لنا تسميته كذلك قبل أن يكون علما –معرفيا مع معارف مجاورة له " إن قراءة تاريخ نشأة التفكير السيميائي لهذا القرن ... يظهر بان بداية السيميائيات انطلقت من التفكير حول العلامة ومفارقتها ومتعالياتها"[7]؛ أي كل الأفكار والمعارف التي تحيل إليها العلامة أو تستخدمها.

فالسيميائيات كما يجمع الدارسون محاقلة لجملة من العلوم، كما أنها ليست نظرية جاهزة محددة من خلال مفاهيم مضبوطة وموحدة، بل على العكس من ذلك حالة وعي معرفي عرف بامتداداته في حقول معرفية متعددة.

السيميائيات في نهاية الأمر ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة إلى ينتج بها الإنسان سلوكاته؛ أي معانيه، وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني"[8]

يفند دانيال تشارلز الرأي القائل بان السيميولوجيا علم بقوله " إن مصطلح علم مظلل، حتى الآن لا تملك السيميائية مسلمات نظرية أو نماذج تطبيقية يقوم عليها إجماع واسع، لا تزال السيميائية نظرية إلى حد بعيد يسعى كثير من منظريها إلى تحديد مجالها ومبادئها."[9]

إن السيميولوجيا على هذا لا تزال تبحث لها عن ضبط معرفي محدد، حتى ترقى إلى مستوى العلم واضح المعالم، ولن يتسنى لها ذلك إلا من خلال بيان المنطلقات المعرفية التي تتكئ عليها السيميولوجيا والحدود التي تنتهي إليها الدراسة والبحث السيميائيين "يقضي التحليل الابستمولوجي إلى ضرورة التوقف عن اللحظات الحاسمة في تشكل العلوم والمعارف مادام العلم لا ينشأ دفعة واحدة، وإنما يمضي أشواطا في طريق تحديد موضوعه وتكوين مفاهيمه وصقلها إضافة إلى المجالات التي يقيم بينها علاقات التكامل والتفاعل" [10]

هذا المعنى يحيلنا إلى البدء في تقصي أهم المحطات الهامة والحاسمة في مسار تكون السيميولوجيا كعلم مستقل بعد أن كانت مجرد فكر يصاحب التأمل في مناحي الحياة المختلفة إلى أن وصلت نظرية مكتملة النواحي الابستمولوجية على الأقل في انتظار اثبات العكس.

1- فرديناند دي سوسير: دروس في اللسانيات العامة، تر:صالح قرمادي واخرين، الدار العربية للكتاب، تونس ،د.ط، 1990، ص16.

2 - O.DUCROT et T.TÒDOROV , Dictionnaite Encycloplédique des sciences du language, Article sémiotique, Ed. Du seuil.Paris 1972, P.P. 113-122

3 - أحمد يوسف: "السيميائيات ومرتكزاتها المعرفية" ، مجلة سيميائيات، العدد 02، خريف 2006، مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، الجزائر. ص 31.

4 -ألان ف شالمرز: ماهو العلم، تر: لطيفة ديب عرنوق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سورية، 1997، ص 11.

5 - فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2 لبنان، 2010، ص 21.

6 - المرجع نفسه، ص 22.

7 - أحمد يوسف: "السيميائيات ومرتكزاتها الابستيمولوجية" ، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، العدد الثاني، خريف2006، ص37.

8 - سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، (مرجع سابق)، ص13

9 - دانيال تشارلز: أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، النظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2008، ص31.

10 - حافظ اسماعيل علوي وامحمد الملاخ: قضايا ابستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، الجزائر ط1، 2009، ص29.